

ألفاظ السمع ودلالاتها في السياق القرآني

د. غصّاب نهار مطر الحوري*

الملخص :

تناول هذا البحث جزئية تتعلق ببلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وهي (ألفاظ السمع ودلالاتها في السياق القرآني)، وجاء اختياري له انسجاماً مع تخصصي في مرحلة الماجستير والدكتوراه، وهو البلاغة والنقد، كذلك رغبت في الأمانة في تقديم مادة علمية خاصة بألفاظ السمع تكون عوناً لفهم القرآن الكريم، وتدبر معانيه، وخدمة لدارسي اللغة العربية وبلاغتها.

وعليه فإن أسلوب الاستقصاء والتحليل هما الآلية البحثية التي سيسلكها الباحث في إضاءة محاور البحث وتنويرها.

وقد تم تناوله في مقدمة، ومحورين، وخاتمة.

- المقدمة: تضمنت أهمية البحث وأسباب اختياره، والمنهج المتبع فيه.
- المحور الأول الإدراك الحسي في القرآن الكريم: أضاف الباحث فيه اللثام عن نوعي الإدراك الحسي عند الإنسان، والوقوف على بعض وسائل الإدراك الحسي الخارجي.
- المحور الآخر ألفاظ السمع ودلالاتها: أبرز الباحث فيه معنى السمع في اللغة والاصطلاح، وبيان معناه ودرجاته في القرآن الكريم، ثم الوقوف على الدلالات المختلفة لألفاظ السمع ومشتقاتها في السياقات القرآنية.

Abstract :

This paper dealt essentially with a rhetorical and miraculous aspect involving hearing –bound terms in the Qur'an and their suggestive significance. The focus of this current paper is similar to the kind of research I had carried out during my MA and Ph.D studies: rhetoric and criticism. The choice of this topic for the current study derives from an intense interest in providing new ways of reading hearing-bound words that would likely help enhance understanding and provide for better contemplations of the meanings of the Qur'anic text, especially for the yet to be mature rhetoricians.

The author's ultimate goal is to explore and analyze hearing oriented terms in

* أستاذ البلاغة والنقد المشارك في قسم اللغة العربية جامعة الجوف المملكة العربية السعودية.

their respective contexts with the aim of highlighting their meanings. As an organizing principle, the paper is comprised of the introduction, which presents the significance of the choice of this topic and the appropriate approach to deal with it. The author's concern is two fold: how perception both inwardly and outwardly can account for meaning, and what mechanisms are contributory to that; the variant meanings that hearing linked words might take on in their various occurrences in the Qur'an and what mechanisms are contributory to that; the variant meanings that hearing linked terms take on as they occur in different Qur'anic discourses.

المقدمة

القرآن الكريم كلام الله تعالى، لا ريب فيه، ومعجزة الرسول(ص) الخالدة وأثبت عجز البشر، فتحداهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، وتعدّرت عليهم معارضته.

وهذا البحث يهدف إلى إمطة اللثام عن دلالة ألفاظ السمع ومشتقاتها في السياق القرآني الذي استعملت فيه، وقد تكون السياقات في بعض الحالات هي المعين الوحيد للوصول إلى الفروق الظلال الدلالية التي تفرق بين الألفاظ التي لا تفرق بينها المعاجم، ولا كتب اللغة، والتفسير بل وتعدّها مترادفة.

وقد جاء عنوان البحث تحت مسمى (ألفاظ السمع ودلالاتها في السياق القرآني) واختياري له جاء انسجاماً مع تخصصي الدقيق في مرحلة الماجستير والدكتوراه، ورغبتي في تقديم مادة علمية خاصة بألفاظ السمع، لأن معظم الدراسات السابقة تحدثت عن ألفاظ الحواس بشكل عام.

وعليه فإن أسلوب الاستقصاء والتحليل هما الآلية البحثية التي سيسلكها الباحث في إضاءة محاور البحث وتنويرها.

ويبقى القرآن الكريم أقوى الكتب وأسلمها من الناحية البلاغية، وقد برز ذلك من كثرة الدراسات المتعلقة بعلوم البلاغة الثلاثة: علم البيان، علم البديع، علم المعاني، والتي كان الهدف منها إعانة قارئ العربية على فهمه، وتدبر معانيه، وخفايا أسرارهِ وتذوق أساليبه للوصول إلى عميق حكمته وتفصيل أحكامه.

وما هذا البحث إلا حلقة من حلقات الدرس البلاغي يأمل الباحث أن يكون في صف الدراسات التي خدمت القرآن الكريم واللغة العربية.

- وقد ارتأى الباحث تناول البحث في مقدمة ومحورين وخاتمة.
- **المقدمة:** فقد خصصها الباحث لبيان أهمية البحث، وأسباب اختياره والمنهج المتبع فيه.
 - **المحور الأول، الإدراك الحسي في القرآن الكريم:** لقد أرادت مشيئة الله سبحانه وتعالى - أن يزود الإنسان والحيوان بكل الإمكانيات والوظائف الضرورية للحياة، ومنها الإدراك الحسي بنوعيه الداخلي والخارجي. وسميط الباحث اللثام في هذا المحور عن أهمية السمع وبيان أفضليته على البصر، والوقوف على بعض وسائل الإدراك الحسي الخارجي ومنها: التخاطر، والاستشفاف، والاستهتاف، والتي تحدث عند بعض الأشخاص الذين يتمتعون باستعداد خاص يكون خارقاً للعادة.
 - **المحور الآخر ألفاظ السمع ودلالاتها:** وسيتحدث الباحث فيه عن معنى السمع في اللغة والاصطلاح، وبيان معنى السمع ودرجاته في القرآن الكريم، وأخيراً بيان الدلالات الخاصة بألفاظ السمع ومشتقاتها في سياقات القرآن المختلفة.
 - **الخاتمة:** وتتضمن خلاصة البحث والنتائج والتوصيات.

الإدراك الحسي في القرآن الكريم

لقد أرادت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يزود الإنسان والحيوان بكل الإمكانيات والوظائف الضرورية للحياة. ومن ضمن هذه الهبات والإمكانيات الإدراك الحسي، فهو إحدى الوظائف العقلية في الحياة حيث يدرك الكائن الحي ما يؤذيه فيتجنبه، وما يفيدّه فيسعى إليه، أي أن الإدراك يعنى وظيفة عقلية عن طريقها يتم إعطاء معنى للمحسوسات.

وقد خصّ الله سبحانه وتعالى الإنسان بوظيفة إدراكية مهمة يتميز بها عن سائر الحيوانات الأخرى، وهي العقل الذي يستطيع أن يعلو بإدراكه عن الأشياء المحسوسة، فيفكر في المعاني المجردة كالخير والشر والفضيلة والرذيلة، وإلحق بالباطل ويستطيع به أن يستدل على وجود الخالق وقدرته (سُنِرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (1).

والقرآن الكريم يوضح لنا أنّ الطفل يولد وهو لا يعلم شيئاً ثم لا يلبث أن تبدأ حواسه في أداء وظائفها، فهو يتأثر بما يقع عليه من مؤثرات خارجية

(1) سورة فصلت: آية 53.

محدثه فيه إحساسات مختلفة هي الأساس الذي يتكون منه فيما بعد إدراكه، ومعرفته بالعالم الخارجي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في كثير من الآيات الدالة بكل صراحة على ذلك، نذكر منها على سبيل المثال لا على الحصر، قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (1).

وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (2).

ومما يلاحظ أن القرآن الكريم اكتفى بذكر السمع والبصر كأداتين من أدوات الإحساس، وذلك لأهميتها في عملية الإدراك الحسي، ولأن في ذكرهما ما يكفي للدلالة على أهمية جميع الحواس في عملية الإدراك الحسي. وهذا من خصائص أسلوب القرآن الكريم الذي يتميز بالإيجاز البليغ، والاكتفاء بالتلميح والإشارة إلى الحقائق الأساسية العامة، ويتغاضى عن الجزئيات والتفصيلات، ويأتي ذكر السمع في القرآن قبل الإبصار في كثير من الآيات ولعل ذلك يرجع إلى عدة اعتبارات:

- إن السمع أهم من البصر في عملية الإدراك الحسي، والتعلم وتحصيل العلوم فمن الممكن للإنسان إذا فقد بصره أن يتعلم اللغة ويحصل على العلوم المختلفة، ولكنه إذا فقد سمعه تعذر عليه ذلك، أو واجه صعوبات كثيرة. ومما يدل على أهمية السمع في الإدراك، وفي تعلم اللغة أن القرآن الكريم ذكره وحده مع العقل للدلالة على العلاقة الوثيقة بينهما، قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (3). كما يذكر القرآن الكريم في كثير من الآيات السمع بمعنى الفهم والتدبر والتعقل: (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا) (4). (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ) (5).
- إن حاسة السمع تعمل عقب ولادته مباشرة، حيث يستطيع المولود أن يسمع الأصوات المحيطة عقب ولادته مباشرة، بينما يحتاج إلى فترة من

(1) سورة النحل: آية 78.

(2) سورة المؤمنون: آية 78.

(3) سورة الملك: آية 10.

(4) سورة آل عمران: آية 193.

(5) سورة الجن: آية 13.

- الزمن لكي يستطيع أن يرى الأشياء بوضوح، إذ إن نمو التكوين الشبكي بالعين لا يكتمل إلا بعد أربع إلى ست شهور من الولادة.
- إن حاسة السمع تؤدي وظيفتها إذا أغمض الإنسان عينيه، أو إذا نام يستطيع الصوت العالي أن يوقظ الإنسان من نومه، ولذلك ذكر الله تعالى في قصة أهل الكهف أن ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) (1). فكان ذلك أشد دلالة على الاستغراق في النوم لتوقف أشد المنبهات.
 - السمع أهم في إقامة الحجّة على الخلق، فالبصر لا يكون إلا حال عرض المعجزة دون زمان من سيأتي، أما السمع فطريقه أعم وأشمل للزمان والمكان.
 - هناك حقيقة علمية وهي أن السمع آخر الحواس توقفاً عند موت الإنسان.
 - ما يلاحظ في القرآن الكريم أن السمع كان دائماً مقدماً على البصر كلما اقترنا، وهذا الترتيب كان في كتاب الإعجاز اللغوي والبلاغي، وهو القرآن، فلا يكون إلا عن سرٍّ، وهو قاعدة أفضلية المتقدم على اللاحق، خاصة أن هذا التقديم شمل كل المواضع التي اجتمع فيها بأفضلية السمع على البصر من الناحية المعرفية.
 - السمع جهات استقباله متعددة عكس البصر لا يكون إلا بالمقابلة.
 - حاسة السمع تعمل ليلاً ونهاراً وفي الظلام والنور، في حين البصر لا يعمل إلا في النور، وفي هذه الميزة قال الله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) (2) وقوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (3).
 - السمع ينقل المعارف الماضية والأخبار الآتية، أما البصر فينقل الحاضر المعين، قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) (4) وقوله تعالى:

(1) سورة الكهف: آية 11.

(2) سورة القصص: آية 70.

(3) السورة نفسها: آية 71.

(4) سورة السجدة: آية 26.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (1).

• يذكر القرآن الكريم السمع مفرداً، بينما ذكر الأبصار في معظم الآيات في صيغة الجمع، وهذا من إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، فحاسة السمع تستقبل الأصوات الصادرة من جميع الجهات، بينما العين لا ترى إلا إذا اتجه الإنسان نحو الشيء الذي يريد رؤيته، وإذا حدث صوت في مكان يجتمع فيه جمع من الناس فإنهم يسمعون نفس الصوت في وقت واحد. بينما يرون الشيء الواحد من زوايا مختلفة بمعنى أن رؤيتهم للشيء الواحد لا تكون مماثلة.

• وهناك حواس جلدية توجد في بشرة الإنسان تكون كثيرة ومختلفة الشكل والوظيفة، وهي مخصصة لاستقبال أنواع معينة من الإحساسات، فبعضها يحس بالحرارة وبعضها يحس بالبرودة، وبعضها باللمس، والضغط، وبعضها يحس بالألم. وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود أعضاء الحس الخاصة بالألم في جلد الإنسان، وذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) (2). وأشار كذلك إلى حاسة اللمس كأداة يستعين بها الإنسان ليحس بها الأشياء بغية التعرف عليها: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (3).

• السمع سبب لاستكمال العقل بالمعارف، والبصر لا يوقفك على المحسوسات.

- أول حاسة تستجيب من النائم حاسة السمع، وإن كان مغمض العينين.
- فاقد السمع يفقد النطق، لعدم القدرة على التلقي والتلقين، وإدراك مخارج الحروف وصفاتها، فيفقد خاصية المخاطبة.
- إيماننا بالوحي والرسالة وجميع الغيبات المتعلقة بالدين أساسه السمع لا البصر.
- إن حاسة السمع هي أكثر ذكراً في القرآن الكريم فقد وردت فيه مائة وخمس وثمانين مرة.

(1) السورة نفسها: آية 27.

(2) سورة النساء: آية 56.

(3) سورة الأنعام: آية 7.

● حاسة السمع لها أهمية كبيرة لأنها تتلقى المعلومات بجزئياتها المتغيرة لذا عبّر عن الأذن بالإفهام، وعن فعل السماع بالسمع والطاعة. وكلّ موضع أثبت فيه السمع للمؤمنين في القرآن الكريم، أو نفيه عن الكافرين أو حث على تحرّية فالفصد به إلى تصوّر المعنى والتفكير فيه. وهناك نوع من الإدراك الحسي غير المذكور، وهو الذي يسميه علماء النفس الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس مثل:

● **الاستشفاف:** وهو رؤية الأشياء البعيدة الخارجة عن مجال حاسة البصر، ويسمى الاستبصار، أو الجلاء البصري، مثل زرقاء اليمامة، التي كانت ترى الأشياء بقوة الاستبصار وليس من خلال العين المجردة.

● **والتخاطر:** وهو إدراك خواطر وأفكار شخص آخر يكون في الغالب في مكان بعيد. وأول من استخدم مصطلح التخاطر هو فريدريك مايرز عام 1882م في وقت ظهرت فيه أنواع المخترعات التي لم تكن مألوفة لدى الناس من قبل مثل: التلغراف والتلفون.

● **والاستهتاف:** وهو سماع نداء أو حديث من مكان بعيد خارج عن مجال حاسة السمع.

وهذا النوع من الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس الخمس يحدث فقط عند بعض الأشخاص الذين يتمتعون باستعداد خاص قد يكون عبارة عن شفافية روحية تملدهم بقدرة إدراكية خارقة للعادة، وتمكنهم من تجاوز حدود المكان ليدركوا أشياء واحداً بعيداً عنهم فالرسول (ص) كانت لديه قدرة خاصة غير عادية بسبب صفاء روحه، وشفافيتها، وذكره الدائم لله، فقد كان يرى من وراء ظهره. فعن أنس بن مالك -قال: ((أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله (ص) فقال: أقيموا صفوفكم وتراصوا، فإني أراكم من وراء ظهري. (1)

ورأى بيت المقدس أمامه، ووصفه وهو قائم في الحجر بالمسجد الحرام بمكة. فعن جابر أن رسول الله (ص) قال: لما كذبتني قريش في الإسراء قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه (2).

وكان يسمع - عليه الصلاة والسلام أصوات الموتى يعذبون في القبور فعن ابن عباس قال: مرّ النبي (ص) بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان من

(1) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف: 1/ 145 (719).

(2) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء: 5/ 52 (3886).

كبير (1).

ورأى مشارق الأرض ومغاربها المترامية الأطراف، فعن ثوبان أن رسول الله (ص) قال: إن الله طوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن امتي سيبليغ ملكها ما روي لي منها (2).

ومن أمثلة هذا النوع من الإدراك أيضاً ما ذكره القرآن الكريم عن يعقوب عندما شم ريح ابنه يوسف: (وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيْرَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْعَلُونَ) (3).

ومن معجزات عيسى -التي أخبر بها القرآن الكريم أنه كان يخبر الناس بما يأكلون في بيوتهم من طعام وما يدخرون فيها من أشياء: (وَأَنْبَأَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) (4).

والخداع البصري الذي هو إدراك بصري خاطئ لا ينطبق على حقيقة الشيء المرئي وهو خارج عن مرادنا في هذا الطرح، وقد ذكر القرآن الكريم السراب بعدم جدوى ما يقوم به الكفار من أعمال حسنة، إذ ستكون يوم الحساب هباء منثور كالسراب الذي يظنه الظمآن ماء فإذا وصله لم يجده شيئاً. قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (5).

ولا يقدر أي مذهب فلسفي أو فكري إنكار دور الحواس في العمليات المعرفية، غير أن الخلاف قائم حول القيمة المعرفية، ودورها في مراحل الإدراك فالبحث في ألفاظ الحواس ودلالاتها من أهم فصول نظرية المعرفة.

وتبقى دراسة اللفظ القرآني دراسة سياقية، أي دراسته في سياقه الذي استعمل فيه، هي المعين الأول للوصول إلى الفروق الظلال الدلالية التي تفرق بين ألفاظ لا تفرق بينها المعاجم، ولا كتب التفسير، وتعدّها مترادفة. وجدير بالذكر أن دراسة السياق تحتاج كذلك إلى علم مناسبات النزول.

وقد نبّه الزركشي إلى أهمية دلالة السياق في توضيح معاني الألفاظ وتحديد دلالاتها، فقال: إنها ترشد إلى تبين المجمل والقطع بعدم احتمال غير

(1) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول: 53/1 (218).

(2) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: 2889/4.

(3) سورة يوسف: آية 94.

(4) سورة آل عمران: آية 49.

(5) سورة النور: آية 39.

المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظرته (1).

إن الانتفاع بالقرآن يتحقق إذا قرأناه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كان المسلمون الأوائل يتلقونه ليلتمسوا التوجيه الحاضر في شؤون حياتهم الواقعة، وحين نقرأ القرآن الكريم بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال.

سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حيه تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق، وتقول لنا: هذا فافعلوه، وهذا لا تفعلوه وتقول لنا: هذا عدو، وهذا صديق، وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيلة، وكذا فاتخذوا من العدة. وتقول لنا: حديثاً طويلاً مفصلاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون، وسنجد عندئذ في القرآن الكريم متاعاً وحياءاً.

وإن القرآن الكريم ليس كتاب علم نظري، أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعبه، إنما هو كتاب يخاطب القلب، أول ما يخاطب ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح الذي يتلقاه بالإيمان واليقين، وكلما كان القلب ندياً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوته، وأدرك معانيه، وتوجيهاته ما لا يدركه القلب القاسي، واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد، وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المظموس.

وإن الإنسان ليقراً الآية أو السورة مرات كثيرة وهو غافل أو عجول، فلا يستخرج من المعاني ما يؤثر في قلبه وحياته. وفجأة يشرق النور في قلبه، فتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر على البال، وتصنع في حياته المعجزة في تحويلها من منهج إلى منهج، ومن طريق إلى طريق.

وهذا البحث يتناول ألفاظ السمع في القرآن الكريم ومشتقاتها التي تتعاون فيما بينها وبين القلب الحي لتحقيق إنزاله وهو التدبر، فبسلامة الحواس وتعاونها مع القلب يحدث أحسن صورة من صور التدبر، والانتفاع بالقرآن، وخاصة إذا قرنت هذه الحواس بالقلب، وأثرها فيه، وأثره عليها، فالقلب سلطان الجسد، والجوارح جنوده.

ويبقى القلب هو مركز الإدراك، أمّا الحواس فهي ناقلة له عن العالم الخارجي، مع اكتسابه لصفة الإدراك الحسي. وإن تكامل الحواس والعقل في

(1) البرهان في علوم القرآن ج2: ص 200.

القرآن أمر مسلّم به، حيث لا تقوم منفردة، وفقدان أو ضعف أي منها نقص في جهة من العلم، فانتقاصها انتقاص للعقل.

ويرى الكثير من الباحثين في الفلسفة والفكر بفروعها أنّ الحواس تخطئ ولا تصل الى اليقين، ويتبعون في ذلك آراء بعض الفلاسفة القدماء، وفلاسفة المسلمين ومفكرهم وعلمائهم، ومنهم كثير، كأبي حامد الغزالي وابن حزم وغيرهما.

واستدل البعض حول خطأ الحواس بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (1).

وفي ختام هذا المحور لابد من الإشارة إلى أنّ العبد مسؤول عن حواسه وعن استعمالاتها، فعن ابن عباس - " في قوله تعالى: (ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (2) قال النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، قال: يسأل الله العباد فيم استعملوها وهو اعلم بذلك منهم (3).

وقال (ص) في قوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (4).

يسأل الإنسان عن: الإدراك بحواس السمع والبصر، قاله ابن عباس (5).

لذلك فإن الشكر المطلوب على هذه النعم هو استخدام هذه الحواس في اكتساب العلم المعين على طاعة الله، وابتغاء رضاه، وأفضل ما يتقرب به العبد إلى الله هو تدبر كتابه الكريم، والعمل بما فيه، حتى تكون من عباده القليل، كما قال سبحانه وتعالى: (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ) (6) وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (7) وقوله تعالى: (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (8) وقوله تعالى:

(1) سورة النور: آية 39.

(2) سورة التكاثر: آية 8.

(3) تفسير ابن كثير ج 24: ص 582.

(4) سورة الإسراء: آية 36.

(5) تفسير القرطبي، ج 10: ص 260.

(6) سورة نبا: آية 13.

(7) سورة المؤمنون: آية 78.

(8) سورة السجدة: آية 9.

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (1)

ألفاظ السمع ودلالاتها

أودع الله فينا حاسة السمع، وعدّها من مناط التكليف، وبها ينال الإنسان غاية السعادة من سماع كلام الله، وكلام رسوله، وبها حصلت مجموعة من العلوم النافعة، وبها يدرك الحاضر والغائب: المحسوس والمعقول. فلا نسبة لمدرّك البصر إلى مدرّك السمع، ولهذا يكون فاقده أقلّ علماً من فاقده البصر، بل قد يكون فاقده البصر أحد العلماء الكبار، خلاف فاقده السمع، فإنه من القلة وجود عالم من هذا الجنس.

وقبل أن يلج الباحث في تبيان دلالات ألفاظ السمع ضمن السياقات القرآنية، كان لزاماً عليه إماطة اللثام عن المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة السمع في المعاجم العربية، وعند أهل الاختصاص، وكذلك تبيان معنى السمع في القرآن الكريم، وكيف فرّق بين (السمع والاستماع، والإصغاء، والإنصات) بطريقة بليغة ودقيقة، ومناسبة للسياق القرآني، والموقف.

السمع في اللغة:

عند البحث في الدلالة اللغوية لكلمة (السمع) في المعاجم العربية نجد أنّ السمع يشير إلى ما وقر في الأذن، أو حس الأذن، وهي المسمعة، يقال: أساء سمعاً فأساء إجابة، أي: لم يسمع حسناً فأساء الجواب (2).

والسمع: مصدر يكون واحداً وجمعاً، وقد يجمع على أسمع، وجمع أسمع: أسمع (3).

والسمع: حسّ الأذن، وفي التنزيل: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (4) قال ثعلب: معناه: خلا له فلم يشتغل بغيره، وقال اللحياني: السمع: مصدر: سمع سمعاً وسماعاً. والسمع: الاسم والسمع: الأذن، والجمع: أسمع. والسمع: سمع الإنسان وغيره يكون واحداً وجمعاً كما عند ابن السكيت.

والسمع: الذكر الجميل، يقال: قد ذهب سمعه في الناس، أي: صيته، ويقال: سماع بمعنى استمع. ويقال سمعت بالشيء: إذا أشعته ليتكلم به، والسمعة:

(1) سورة الملك: آية 23.

(2) العين: مادة (سمع).

(3) مختار الصحاح: مادة (سمع).

(4) سورة ق: آية 37.

المغنية. والمسمع: كالأذن للغرب: وهي عروة تكون في وسط الغرب، يجعل فيها حبل ليعدل الدلو، قال عبدالله بن أوفى:

تعدل ذا الميل إن رامنا كما عدل الغرب المسمع⁽¹⁾

السمع في الاصطلاح:

إنّ المعنى الاصطلاحي للفظه السمع لا يخرج عن المعنى اللغوي، فهما يدوران في فلك واحد.

يعرّف الشريف الجرجاني السمع بأنه: قوة مودعة في العصب المفروش في مقعر الصّماغ تدرك بها الأصوات بطريق وصول الهواء المتكّيف بكيفية الصوت إلى الصّماغ⁽²⁾.

ومن أسماء الله تعالى: السميع ويطلق السمع على الأذن، ويأتي بمعنى الإجابة، كما في الدعاء المأثور: اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع. أي: لا يستجاب ولا يعتد به كأنه غير مسموع، وهو قوة في الأذن به يدرك الأصوات⁽³⁾.
وعبر القرآن الكريم بالسمع عن الأذن، كقوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ)⁽⁴⁾ وتارة عن فعله كالسمع كقوله تعالى: (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ)⁽⁵⁾ وتارة عن الفهم، وتارة عن الطاعة، نقول: لم تسمع ما قلت لك، أي لم تفهم، وقوله تعالى: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)⁽⁶⁾ أي فهمنا ولم نأتمر لك.

يقول ابن القيم عند كلامه على سمع الأذن والقلب: فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه، ومقصده حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله تعالى: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ)⁽⁷⁾ وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السمع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب،

(1) لسان العرب: مادة (سمع).

(2) التعريفات: ص 121.

(3) المفردات في غريب القرآن: ص 110.

(4) سورة البقرة: آية 7.

(5) سورة الشعراء: آية 212.

(6) سورة البقرة: آية 93.

(7) سورة الأنبياء: آية 23.

وغفلته وإغراضه⁽¹⁾، ومعنى ذلك أن الذي يسمع أمر الله سبحانه تعالى فلا يلتزم به، أو يسمع نهيه دون أن ينتهي عما نهى، فكأنه في الحقيقة لم يسمع، لأنه ثمرة الكلام هي الانتفاع بالمسموع والعمل بموجبه.

والسمع كسائر الحواس والجوارح، وهي من النعم التي امتن الله بها على عباده، وأمر بحفظها عما حرمه، قال تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)⁽²⁾، وقوله تعالى: (قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيَسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ)⁽³⁾.

والسمع من أهم خواص الإنسان، وأشرفها حتى من البصر كما عليه أكثر الفقهاء، إذ هو المدرك لخطاب الشرع الذي به التكليف، ولأنه يدرك به من سائر الجهات، وفي كل الأحوال، أما البصر فيتوقف الإدراك به على الجهة المقابلة. لذا يشترط فيمن يتصلى لأمر مهم من أمور المسلمين العامة كالإمامة، والقضاء أن يكون سميعاً، فلا يجوز تنصيب إمام أصم ولا تعيين قاضٍ كذلك.

معنى السمع في القرآن الكريم

يتضمن السمع في القرآن الكريم ثلاث درجات في علم وظائف الأعضاء، وهي مذكورة في كتاب الله تعالى فأول ذلك: الإحساس بالصوت دون فهم وذلك مثل الطفل الوليد الذي لا يفقه معنى الكلام وهو يحس بالصوت، أو كالدواب السارحة التي إذا نعت بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، فلا تفهم ما يقول، بل إنما تسمع صوته فقط، قوله تعالى: (وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً صَمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)⁽⁴⁾.

والثاني: هي الإحساس بالصوت مع الفهم، وذلك في قوله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)⁽⁵⁾.

والثالث: هي الإحساس بالصوت مع الفهم، بالإضافة إلى الاقتناع والإيمان والطاعة، وهي أعلى درجات السمع التي تمنح للمؤمنين، كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا

(1) التفسير القيم: ص 44، 43.

(2) سورة الإسراء: آية 36.

(3) سورة النساء: آية 140.

(4) سورة البقرة: آية 171.

(5) السورة نفسها: آية 75.

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (1).

وهذه المعاني الثلاثة تتوافق مع ما هو معروف في علم وظائف الأعضاء من الإحساس بالصوت والتمييز والفهم، والوظائف العليا الأخرى للمخ التي تنتج العواطف والإرادة والتصرفات.

والقرآن الكريم فرق بين (السمع، والاستماع، والإصغاء، والإنصات) بطريقة بليغة ودقيقة، ومناسبة للموقف.

فالسمع: يكون بقصد أو بدون قصد، ومثاله في كتاب الله العزيز قوله تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) (2).

والاستماع: يكون بقصد من أجل الاستفادة، قال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) (3).

والإصغاء: حيث التركيز وتفاعل القلب والمشاعر، قال تعالى: (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) (4).

والإنصات: هو ترك الأشغال والسيكوت والتفرغ للاستماع. قوله تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (5).

وعن أبي هريرة - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا (6).

الدلالات:

لقد وردت لفظة السمع مائة وأربع وثمانين مرة في كتاب الله عز وجل وبمعان ودلالات مختلفة، وهي النحو الآتي:

1. الدلالة الحقيقية (سمع الأذن):

جاءت الدلالة الأصلية، أو المعجمية للسمع في السياق القرآني بمعنى السمع الحقيقي، وذلك في سياق إقامة الحجّة علي الإنسان بالتكليف الربانية المتعلقة بأمور الشرع، قوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ

(1) سورة الأنعام: آية 36.

(2) سورة القصص: آية 55.

(3) سورة الأحقاف: آية 29.

(4) سورة التحريم: آية 4.

(5) سورة الأعراف: آية 204.

(6) رواه النسائي: 141/2 (921).

وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا⁽¹⁾. يقول الزمخشري في تفسيره: السمع هنا حاسة عن طريقها يتتبع الإنسان ما لا علم به من قول أو فعل، في مقام ينهى عنه الله سبحانه وتعالى عن أن يقول الرجل ما لا يعلمه⁽²⁾.

وقوله تعالى: (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ)⁽³⁾ وقوله تعالى: (كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا)⁽⁴⁾ قال مقاتل: سميع يعني سمع الأذنين في قوله تعالى: (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)⁽⁵⁾ وقال تعالى: (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ)⁽⁶⁾ والمنادي هو النبي p ⁽⁷⁾. ولمزيد من الشواهد على الدلالة الحقيقية، انظر⁽⁸⁾.

2. دلالة العلم:

تتولد دلالة العلم في السياقات القرآنية، وتأخذ نمطين، فأما الأول: فهو عموم العلم، والإحاطة التامة بجميع المسموعات في السياقات التي يسند فيها السمع إلى الله تعالى. قوله تعالى: (وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)⁽⁹⁾.

وهذه الدلالة تتولد في سياقات قرآنية كثيرة تشير إلى صفة السمع لدى الخالق عز وجل وكيف تنتقل من مجرد آلة بشرية لإنتاج الصوت داخل الصماغ إلى كونها صفة من صفات الألوهية الدالة على الإطلاع التام، والشامل لجميع المسموعات مما يؤدي إلى العلم، والإحاطة بجميع ما يحدث بين خلقه سواء أكانوا بشراً أم من غير البشر.

وهذه المقابلة بين السماع البشري والسماع الإلهي؛ جعلت المفسرين يقفون على تلازم صفة العلم والسمع معاً. وفي هذا المعنى يقول ابن عطية في تفسيره: هاتان الصفتان منبہتان على قصور البشر أي سميع عليم على الإطلاق⁽¹⁰⁾. وفي تناسب هاتين الصفتين معاً يضيف أيضاً: إن كلاً من الإيمان

(1) سورة الإسراء: آية 36.

(2) الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوده التأويل، ج2: ص 623.

(3) سورة الجاثية: آية 8.

(4) سورة لقمان: آية 7.

(5) سورة الإنسان: آية 2.

(6) سورة آل عمران: آية 193.

(7) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم: ص 226.

(8) انظر: سورة يونس: آية 42. سورة محمد: آية 16. سورة الجن: آية 1. سورة ق: آية 4. سورة الواقعة: آية 5.

(9) الإسراء: الآية 36.

(10) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج2: ص 323.

وضدّه مشتمل على أقوال وأفعال وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأفعال فناسب أن يختم ذلك بهما أي: وهو السميع العليم بنياتكم وأعتقادكم، ولما كانت الأقوال في الظاهرة لنا الدالة على ما في الباطن قدّمت صفة السميع على العليم (1).

وفي سياقات إقامة الحجة تأتي حاسة السمع مقرونة بالعلم في مواضع كثيرة، وتليها في الأهمية حاسة البصر مقرونة بالعلم كذلك، وقد عرفت هاتان الحاستان اصطلاحاً بأنهما مودعتان (2) وإذا أدركنا أن الحجة تستوجب كونهما مودعتين عرفنا حينها السبب الذي لأجله تكررت لفظة (سمع) ومشتقاتها كثيراً في سياقات قرآنية مختلفة.

تقترن لفظة (سميع) بلفظة (عليم)، ولفظة (بصير) حيناً آخر، وذلك في أكثر السياقات القرآنية التي وردت فيها. ومن الملاحظ أن اقترانها بلفظة (عليم) أكثر من ارتباطها بلفظة (بصير). قوله تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (3). وقوله: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (4). وقوله تعالى: (وَلَا يَحْزِنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (5). وقوله تعالى: (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (6).

كما تأتي هذه الدلالة العامة في سياقات يسند فيها حدث السمع لله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (7) وغيرها من الشواهد الكثيرة التي جاءت في مواضع مختلفة ودلالات كثيرة (8).

وأما النوع الآخر من السياقات التي تأتي منها دلالة العلم، فهي العلم البشري الذي يكون قاصراً بكثير عن إحاطة الخالق - جل وعلا بجميع

(1) المصدر نفسه، ج: 1، ص 583.

(2) انظر: كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، مصطلح (البصر) ج: 1، ص 336، التعريفات، ص 121.

(3) سورة البقرة: آية 127.

(4) سورة نفسها: آية 137.

(5) سورة يونس: آية 65.

(6) سورة لقمان: آية 28.

(7) سورة المجادلة: آية 1.

(8) لمزيد من الشواهد انظر: سورة النساء: آية 58. سورة العنكبوت: آية 55. سورة غافر: آية 56، سورة

الشورى: آية 11.

المسموعات. قوله تعالى: (قَالَ كُلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) (1).

فقد جاءت لفظة (مستمعون) بدلالة العلم الخاص، وهو ما كان يجري بين فرعون وقومه، وهو العلم الذي توافقه العناية واللفظ ويعلل ابن عاشور عنه تولد الدلالة بقوله: لأن أصل الاستماع أنه تكلف السماع، والتكلف كناية عن الاعتناء (2).

إن دلالة العلم تتولد من آلية المجاز المرسل بعلاقة السببية، فالسمع سبب في العلم والإحاطة بالأمور، وفي الوزن الصرفي لاسم الله تعالى (السميع) تتحقق آلية صرفية أخرى، فصيغة سميع على وزن فعيل وهو من الأوزان التي تفيد المبالغة والتكثير والتهويل، والسميع بمعنى المسمع واستشهد بعض المفسرين على هذا المعنى بيت عمر بن معدي كرب (3):

أمن ريحانة الداعي السميع
يؤرقني وأصحابي هجوع

وكثرة ورود هذا الوزن في القرآن الكريم دلالة على أهمية الحاسة عند خالقها — جل وعلا لأنها أداة الفهم والعلم الموصولين إلى الإيمان به سبحانه، وكذلك تبين عظم مسؤولية الإنسان أمام ربه في ما يسمعه ويعلمه.

3. دلالة سمع القلب:

مثل قوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ) (4). وقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) (5). وقوله — عز وجل: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) (6).

ومعنى سمع القلب: سميع الإيمان بالقلب وهذا ما أشار إليه مقاتل بن سليمان (7). فقوله تعالى: (وَكُنَّا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) (8). يعني لم يطيقوا سمع الإيمان بالقلوب، وكذا في قوله تعالى: (كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا) (9).

(1) سورة الشعراء: آية 15.

(2) تفسير التحرير والتنوير ج 19: ص 123.

(3) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج 2: ص 286.

(4) سورة البقرة: آية 7.

(5) السورة نفسها: آية 20.

(6) سورة الجاثية: آية 23.

(7) الأشباه والنظائر: ص 226.

(8) سورة الكهف: آية 101.

(9) سورة الجاثية: آية 8.

4 دلالة قبول الدعاء:

تتولد هذه الدلالة في التراكيب القرآنية، وذلك في معرض الحديث عن مقامات الدعاء كقوله تعالى: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)،¹ فالمقام هنا مقام دعاء والتماس قبول، لذلك تضاف خصوصية طلب التقبل للدعاء مع دلالة عموم العلم والإحاطة التامة بالمسموعات،².

وفي إفادة (السميع) معنى الدعاء، ذكر ابن عاشور: أن السميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبهة ليدل على كثرة ذلك، فيفيد أنه وصف ذاتي لله.

وإن الآلية البلاغية المتمثلة في الكناية قد أنتجت دلالة إجابة الدعاء، فالسمع في الآية كناية عن صفة تقبل الدعاء، وقد أفادت هذه الدلالة نفسها مشتقة (سمع) في قوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)،³ التي أفادت دلالة طلب الإجابة للدعاء أيضا،⁴.

5. دلالة الوعيد والتحذير:

تتولد دلالة الوعيد والتحذير داخل السياقات الموجهة لمن خالف تعاليم الخالق ونواهيه الربانية، كما في قوله تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)،⁵ والواضح أن تذييل قوله تعالى: فسيكفيكمهم الله بقوله: وهو السميع العليم قد أعطى خصوصية دلالية تزيد على علمه - سبحانه وتعالى بالمسموعات وهي الوعيد والتهديد لهؤلاء الضالين الذين يؤذن رسول الله (ص)، لأن السميع هنا قد أعطيت دلالات خاصة وهي دلالة الوعيد والتهديد والانتقام، بعد أن كانت تفيد عموم السمع، وهذا من قبيل التوسعات الدلالية في الدلالة المعجمية للسمع بتحويلها من العام إلى الخاص، السميع العليم فيجازيكم بما يصدر منكم،⁶.

(1) سورة البقرة: 127.

(2) التفسير الكبير أو مفاتيح العيب ج4: 453.

(3) سورة المجادلة: آية 1.

(4) تفسير التنوير والتحرير ج12: ص 265.

(5) سورة البقرة: آية 127.

(6) المحرر الوجيز في تفسير القرآن الكريم، ج1: 216.

6. دلالة الفهم:

نقول أسمع ما أقول لك، ولم تسمع ما قلت، وتعني لم تفهم، قوله تعالى: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) 1. وقوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) 2. يجوز أن يكون معناه فهمنا وهم لا يفهمون وأن يكون معناه فهمنا وهم لا يعملون بموجبه، وإذا لم يعمل بموجبه، فهو في حكم من لم يسمع. ثم قال تعالى: (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) 3. أي أفهمهم بأن جعل لهم قوة يفهمون بها.

وكل موضع أثبت الله السمع للمؤمنين، أو نفى عن الكافرين، أو حث على تجربة فالفصد به إلى تصوّر المعنى، والتفكير فيه، كقوله تعالى: (أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) 4. وقوله: (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ) 5. أي لا تفهمهم لكونهم كالموتى في افتقادهم بسوء فعلهم القوة العاقلة التي هي الحياة المختصة بالإنسانية 6.

7. دلالة الاستماع والإنصات:

يذكر ابن عاشور 7 معنى الاستماع والإنصات في تفسيره قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مِثْلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) 8. نعلم أن حقيقة السمع هو الإحساس الذي به إدراك الأصوات الذي آتته الصماغ 9.

ويتضمن الاستماع معنى السمع الحقيقي والإصغاء مضافاً إليه إدراك المسموع وفهمه، وإذا خلا من الأمرين كان سماعاً لا استماعاً.

يأتي الفعل (استمع) ومشتقاته من مثل: يستمعون، يستمع، واستمع، واستمعوا، والاستماع بهذه الدلالة في القرآن الكريم حيث ورودها.

ولا شك أن (الهمزة والسين والتاء) أنتجت هذه الدلالة بدلالاتها على

(1) سورة الأنفال: آية 31.

(2) سورة الأنفال: آية 21.

(3) السورة نفسها: آية 23.

(4) سورة الأعراف: آية 195.

(5) سورة النمل: آية 80.

(6) المفردات في غريب ألفاظ القرآن: 243.

(7) تفسير التحرير والتنوير ج1: ص 145.

(8) سورة الحج: آية 73.

(9) تفسير التحرير والتنوير، ج1: ص 145.

الطلب، وهي تعمل على وفق آلية المجاز المرسل بعلاقته السببية، فالاستماع مسبب للسمع، كما أن السمع سبب في الاستماع، وبهذه الرؤية، والإدراك، والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستتيرة مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه.

وإنّ العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم، ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب.

وإنّ رؤية حقائق الوجود من خلال التصوير القرآني وحقائق الحياة، ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها، وحاجاتها من خلال التقارير القرآنية، لهي رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة⁽¹⁾.

وللاستماع والإنصات أثر واضح في تدبر القرآن الكريم، ويمكن حصره في أمرين:

الأول تبليغ دعوة الحق إلى الخلق: قال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنَّ يَستَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)⁽²⁾.

وهذه الآية الكريمة تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن، فقد استمعوا صامتين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم، ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. الدلالة بكون الاستماع مرحلة وسطى ما بين السمع الحقيقي، والنتيجة الطبيعية للسمع وهي العلم بالشيء وفهمه، فنحن نسمع الأصوات ثم نستمع ما ورد فيها لتوصل إلى الإدراك والفهم.

وأما الإنصات فهو السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة⁽³⁾.

ذكر أنّ القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر باستماعه إذا شرع في قراءته، وبالإنصات وهو السكوت مع الإصغاء إليه؛ لأن ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حري بأن يصغي إليه حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج وينتفع بها فيستبصر من العمى، ويهتدي من الضلال ويرحم بها، والظاهر

(1) تفسير السعدي: 314.

(2) سورة الأحقاف: آية 29.

(3) المفردات في غريب ألفاظ القرآن: 243.

استدعاء الاستماع والإنصات إذا أخذ في قراءة القرآن ومتى قرئ⁽¹⁾.

والاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن الكريم من الدلالة على صدق الرسول (ص) المفضي إلى الإيمان بما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ، واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين⁽²⁾.

إنَّ الناس يخسرون الأشياء الكثيرة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن، وإنَّ الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس، حين تستمع لها وتنصت، أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف، وهي حالة من امتلاء حسه بشيء جديد وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب يدفعه دفعاً إلى الحركة به، والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام⁽³⁾.

وَالْأَمْرُ الْآخِرُ نِيلَ الرَّحْمَةِ: قال تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)⁽⁴⁾.

فالآية دالة دلالة حقيقية على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزع الشيطان، وهي الاستماع له إذا قرئ، والإنصات مدة القراءة والاستماع أبلغ من السمع، لأنه يكون بقصد ونية وتوجه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، والسمع ما يحصل بغير قصد، والإنصات: السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلاً عن الإحاطة بكل ما يقرأ فمن استمع، وأنصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر، والذي يرجى أن يرحم⁽⁵⁾.

وتتولد دلالة الاستماع والإنصات نتيجة السياق الواردة فيه لفظة (السمع) في قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)⁽⁶⁾. وتركيب ألقى السمع عند ابن عاشور هو إرسال السمع وعدم إمساكه⁽⁷⁾ وقد جاءت الجملة الحالية وهو شهيد دالة على حال من يلقي السمع لتقود إلى دلالة الإصغاء والإنصات، وبهذه الدلالة فسر الزمخشري وأبو مسعود و

(1) تفسير القرطبي، ج: 7: 354.

(2) تفسير البحر المحيط، ج: 6: ص 25.

(3) في ظلال القرآن ج: 6: 428.

(4) سورة الأعراف: آية 204.

(5) تفسير المنار، ج: 9: 461.

(6) سورة ق: آية 37.

(7) تفسير التحرير والتنوير، ج: 17: 245.

ابن عطية (1).

8. دلالة القبول:

قوله تعالى: (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) (2). قال القرطبي: (3) فيه حذف، أي سمعنا سماع قابلين، وقيل سمع بمعنى قبل، كما يقال: سمع الله لمن حمد فلا يكون فيه حذف، وعلى الجملة فهذا القول يقتضي المدح لقائله والطاعة وقبول الأمر.

وقد وردت بهذا المعنى أيضاً في سور منها قوله تعالى: (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) (4) إذ قلتم سمعنا وأطعنا (5)، (قالوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) (6)، وقوله تعالى: (ويقولون سمعنا وعصينا) (7)

9. دلالة الإخبار:

يغلب على هذه الدلالة تركيب (سمع به) وهي تمثل انزياحاً عن الدلالة الأصلية للسمع، ومثال ذلك قوله تعالى: (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا) (8).

ولا شك أن الآلية النحوية التي تمثل تعدية سمع إلى المسموع بحرف الجر (الباء) ولد هذه الدلالة الجديدة، وفي هذا المعنى يعلل ابن عاشور ذلك بقوله: فتعديته بالباء هنا إما لأنه ضمن معنى اخبرت، وأما أن تكون الباء مزيدة للتوكيد (9).

وهذا التركيب أورده الميداني في مجمع الأمثال وبتقدير تحدث به، كما في المثل العربي: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه (10).

العربي بالعربي: العربي: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه (11).

(1) انظر: الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4: ص 495.394. تفسير أبي

سعود ج6: ص 269. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج5: ص 168.

(2) سورة البقرة: آية 285.

(3) الجامع لأحكام القرآن، ج3: آية 277.

(4) سورة النور: آية 51.

(5) سورة المائدة: آية 7.

(6) سورة البقرة: آية 93.

(7) سورة النساء: آية 46.

(8) سورة يوسف: آية 31.

(9) تفسير التحرير والتنوير، ج2: ص 54.

(10) مجمع الأمثال ج 1: ص 147.

(11) سورة يس: آية 25.

10. دلالة الشهادة:

قوله تعالى: (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) (1)، أي: فاشهدوني يا أيها الرسل، وقيل: فأطيعوني (2). قال أبو عبيدة: ومجاز الآية السابقة: اسمعوني، اسمعوا مني (3).

قال الزجاج في قوله تعالى: فاسمعون فاشهد الرسل على إيقانه (4). وقال البيضاوي: قوله إني آمنت بربكم الذي خلقكم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الباء فاسمعون أي فاسمعوا إيماني، وقيل: الخطاب للرسل فإنه لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه (5). قال ابن كثير: فاسمعون أي: فاشهدوا لي بذلك عنده، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل، وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي إني آمنت بربكم، واتبعتمكم، وهذا اظهر في المعنى، والله أعلم (6).

11 دلالة الامتثال والقبول والطاعة:

جاءت هذه الدلالة في كثير من الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (7).

فقد جاءت لفظة سمعنا معطوفة على لفظة اطعنا لتعطي نفس الدلالة وتركيب لفظة (سمع) ومشتقاتها كالسمع واسمعوا مساوية لدلالة الامتثال والقبول والطاعة. وتركيب سمعنا وأطعنا في هذه الآية الكريمة كناية عن الامتثال والطاعة والقبول. وهذا من كلام العرب، فنحن حين نقول: سمعاً وطاعة، نقصد امتثالنا للأمر وقبوله، وطاعة صاحب الأمر.

وقال القرطبي في قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ) (8).

(1) وجوه القرآن: ص 296.

(2) مجاز القرآن، ج 3: ص 160.

(3) معاني القرآن وإعرابه، ج 4: ص 213.

(4) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 4: ص 266.

(5) مختصر تفسير ابن كثير ج 3: ص 167. 168.

(6) سورة البقرة: آية 285.

(8) سورة يونس: آية 67.

لقوم يسمعون أي: سماع اعتبار (1)، وقال البيضاوي: لقوم يسمعون سماع تدبر واعتبار (2).

وتأتي هذه الدلالة أيضاً في قوله تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ) (3)، ففي قوله تعالى: (سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ) (4)، فعند بعض المفسرين يأتي لفظ الجلالة سَمَاعُونَ بدلالة قبولهم لكذب رؤسائهم من تحريف التوراة (5).

كما تأتي لفظة (سمع) بصيغة الأمر لتجاوز الدلالة الحقيقية لوصول الأصوات إلى الأذن، وتدل على الامتثال للأوامر الربانية، فيأتي الخطاب شديد اللهجة، كما في قوله تعالى: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا) (6)، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا) (7)، وقوله أيضاً: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا) (8).

يقول ابن عاشور في سياق دلالة الامتثال: وهذا سماع خاص وهو: الوعي ومزيد التلقي، واسمعوا: امثلوا لأوامر الرسول (ص) وهو أظهر (9). وغير ذلك من شواهد هذه الدلالة (10).

12 دلالة التجسس:

قوله تعالى (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ) (11)، قال أبو عبيده قوله: وفيكم سماعون لهم أي مطيعون لهم سماعون (12)، وقال القرطبي: وفيكم سَمَاعُونَ لهم، أي عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار وقال قتادة وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم. ورجح النحاس، الرأي الأول بأنه أولى، لأنه الأغلب من معنييه أن معنى السماع يسمع الكلام، ومثله سماعون للكذب (13).

(1) الجامع لأحكام القرآن، ج8: 230.

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج4: 266.

(3) سورة المائدة: آية 41.

(4) سورة نفسها: آية 42.

(5) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج2: ص 192.

(6) سورة البقرة: آية 93.

(7) سورة نفسها: آية 104.

(8) سورة المائدة: آية 108.

(9) تفسير التحرير والتنوير، ج1: ص 652.

(10) انظر: سورة النحل: آية 65. سورة الروم: آية 23، سورة السجدة: آية 26.

(11) سورة التوبة: آية 47.

(12) مجاز القرآن، ج1: 261.

(13) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج8: ص 100، صفوة البيان: ص 256.

إن لفظة سماعون، في القرآن الكريم تتميز بتوليد دلالة التجسس في سياقات محدودة، يتعلق فيها هذا اللفظ بالجار والمجرور، والمجرور الضمير (هم)، وقد ولدت الكناية هذا الدلالة لأن (السمع) يكتنى به عن التجسس، وربما حضر المجاز المرسل بعلاقته السببية، لينتج هذه الدلالة في قوله تعالى: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) (1).

فسر الكلبي، سماعون، بأنهم يسمعون أخبارهم وينقلونها إليهم (2) وفسرها الزمخشري بقوله: أي نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم (3) وذكر ابن عباس هذه الدلالة صراحة بقوله: إنهم جواسيس على المسلمين للكفار (4).

3 دلالة القوالين:

قوله تعالى: (سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ) (5)، قال ابن كثير: أي مستجيبون له منفصلون عنه سماعون لقوم آخرين لم يأتوك أي: أنهم يتسمعون الكلام وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك، أي يتأولونه على غير تأويله الحقيقي ويبدلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون (6).

وزاد البيضاوي سماعون للكذب خبر لمحذوف أي: هم سماعون والضمير للفريقين أو للذين يسارعون، ويجوز أن يكون مبتدأ و من الذين خبره، أي من اليهود قوم سماعون، واللام في الكذب إما مزيدة للتأكيد أو لتضمين السماع معنى القبول أي: قابلون لما تفتريه الأخبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليكذبوا عليك فيه (7).

ويبدو أن تعلق لفظ الجلالة سَمَاعُونَ بحرف الجر اللام ما جعله يحكم بتضمين سماع معنى القول، فتصبح الدلالة (قوالون للكذب أي يكثر قولهم) وقد أُنْتُج هذه الدلالة المجاز المرسل بعلاقته السببية؛ لأن القول سبب في السمع.

(1) سورة التوبة: آية 47.

(2) التسهيل في علوم التنزيل: ص 255.

(3) الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل: ج 2: 264.

(4) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس: ص 159.

(5) سورة المائدة: آية 41.

(6) مختصر تفسير ابن كثير: ج 1: ص 53.

(7) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج 2: 126، 127.

14 دلالة الاتعاظ والتفكر والتأمل:

تدخل آلية المجاز المرسل بعلاقته السببية في توليد هذه الدلالة، فالسمع الحقيقي هو وصول الأصوات المختلفة إلى الأذن، ودلالة السمع هنا نتيجة للاستماع والعلم بآيات الله في الأرض، عندئذ يصبح التفكير والتأمل والنظر في مخلوقات الله مسبباً للاستماع، والاستماع مسبباً للسمع، فكان التفكير هنا خلاصة أخرى للنتيجة. وهذه الدلالة تكثر في السياقات القرآنية الدالة على خلق الله في معرض الاستشهاد بما خلق الله من نعم ظاهرة للإنسان تستوجب التدبر والتأمل في آيات الله، وبالتالي التوصل إلى أن خالق الكون واحد، لذلك لا بد من عبادته حق العباداة.

قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ مِنْامِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) (1) وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) (2) أي: أفلا ينطقون من أخبار تلك الأمم (3) وقوله تعالى: (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) (4) وقوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (5).

إن دلالة الاتعاظ والتفكر والتأمل تتولد من لفظ الجلالة يسمعون الوارد في جميع السياقات القرآنية المذكورة، وقد جاء بصيغة المضارع الذي يفيد استمرارية الحدث وتواصله، وكأن هذه الدلالة صالحة لكل زمان ومكان ولكافة البشر.

15 دلالة عموم الطلب:

وتتولد هذه الدلالة بسبب آلية التوسع الدلالي بتحول عموم الدلالة في السمع إلى خصوصيتها في الطلب كما في لفظ الجلالة يسمعون، في قوله تعالى: (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ) (6). ويعرف التسمّع بأنه: تطلب السماع وأصلها يتسمعون فأدغمت السين في الناء لاشتراكها في الهمس (7) ولا شك أن الزيادة الصرفية (الهمزة والسين والياء) ولدت أيضاً طلب السمع بآلية التوليد الصرفية، كما أن تضعيف الميم في (يتسمّع) آلية صرفية أفادت المبالغة والتكثير.

- (1) سورة الروم: آية 23.
- (2) سورة السجدة: آية 26.
- (3) تفسير التحرير والتنوير، ج: 1، ص 36 \ 37.
- (4) سورة يونس: آية 67.
- (5) سورة النحل: آية 65.
- (6) سورة الصافات: آية 8.
- (7) التسهيل في علوم التنزيل: ص 595.

الخاتمة

لقد جاء القرآن في نظمه، وسوره، وآياته، وقصصه، وعظاته، وتلقيناته، وأمثاله، وخطابه، وحججه، وجداله أسلوباً رائعاً في ذلك بخصوصيات جعلته الأميز بالنسبة لأسلوب الكتب السماوية السابقة، وبالنسبة لما هو مؤلف من أساليب النظم والسبك والخطاب، ذا طابع خاص خالد لا يصح أن يقاس عليه أنواع الكلام، وأساليب الكتب والتأليف.

وقد طوّع اللغة بكلّ ما في كلمها من أصوات، وصيغ، وتراكيب، ودلالات، وقواعد، وأحكام، كما أظهر طاقاتها، وخصائصها، وقدراتها، في بيان المعاني والأفكار، والعواطف، والمشاعر، والمواقف الإنسانية، كما قدم الصورة المثلى للغة العربية الفصيحة التي حملت القرآن الكريم واتسعت له، وانتشرت به على كلّ الأمم والشعوب صنعت بالقرآن الكريم علوماً جديدة لها أول بدأت به، وليس لها آخر تنتهي إليه. ومهما اكتشف العلماء الكثير من مكوناته يبقوا عاجزين عن سبر اغواره سبراً تاماً: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء: ٨٥.

ولما كان عنوان البحث هو ألفاظ السمع ودلالاتها في السياق القرآني ارتأى الباحث تناوله في مقدمة ومحورين.

المقدمة: اشتملت على تمهيد ميسر للبحث، وبيان أهميته وأسباب اختياره، والمنهج المتبع فيه.

المحور الأول الإدراك الحسي في القرآن الكريم: لقد خصّ الله سبحانه وتعالى الإنسان بوظيفة إدراكية مهمة تميز بها عن سائر الحيوانات الأخرى، وهي العقل الذي يستطيع ان يعلو بإدراكه عن الأشياء المحسوسة، فيفكر في المعاني المجردة كالخير والشر، والحق، والباطل، ويستطيع أن يستدلّ على وجود الخالق وقدرته. وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات الدالة بكل صراحة على ذلك، وقد جاء ذكر السمع في القرآن الكريم قبل البصر، ويرجع ذلك إلى الكثير من الاعتبارات والأسباب الموجبة لذلك التقديم.

كما أبرز المحور نوعاً آخر من الإدراك وهو الذي يسميه علماء النفس الإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس مثل: الاستشفاف، والتخاطر، والاستهفاف وهذه الأنواع خاصة بالأشخاص الذين يتمتعون باستعداد خاص ناتج عن شفافية روحية تمدّهم بقدرة إدراكية خارقة للعادة، وتمكنهم من تجاوز حدود المكان ليدركوا أشياء وأحداثاً بعيدة عنهم.

المحور الثاني ألفاظ السمع ودلالاتها: فقد أضاف الباحث اللثام عن معنى

السمع في اللغة والاصطلاح، وبيان معنى السمع ودرجاته في القرآن الكريم، وأخيراً وقف على دلالات ألفاظ السمع ومشتقاتها في السياقات القرآنية المختلفة. وقد أظهر البحث وجود الدلالات الآتية: (الحقيقية، سمع الأذن، العلم، سمع القلب، قبول الدعاء، الوعيد والتحذير، الفهم، الاستماع والإنصات، القبول، الإخبار، الشهادة، الامتثال والقبول والطاعة، التجسس، القوالين، الاتعاظ والتفكر والتأمل، عموم الطلب).

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم.

1. أثر التوليد الدلالي في ألفاظ الحواس الخمس، دراسة وصيغة تحليلية في القرآن الكريم، عائشة السيفية: رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.
2. أساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري، تقديم وتعليق محمد احمد قاسم: دار الكتب المصرية، بيروت، ط1، 2003م.
3. الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق د. عبدالله شحاته: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1957م.
4. أعضاء الحواس الإنسانية ودلالاتها في القرآن الكريم، د. ناهدة محمود ود. عبد الحسين عبدالله: مجلة كلية التربية، المجلد 21، 2010م.
5. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزمخشري، تحقيق مصطفى عطا: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
6. التسهيل في علوم التنزيل، محمد الكلبي: دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1973م.
7. التعريفات، الشريف علي الجرجاني: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.
8. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، أبو إسحق الفيروزآبادي: دار الكتب العلمية.
9. تفسير ابن كثير، الإمام ابن كثير، تحقيق محمد الصابوني: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
10. تفسير أبي سعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، محمد أبو سعود: دار إحياء التراث، بيروت.
11. تفسير البيضاوي المسمى، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، تقديم محمد مرعشلي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1998م.
12. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: مطبعة البازي الحلبي، القاهرة، 1965.
13. تفسير السعدي المسمى، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1999م.
14. تفسير القرطبي، المسمى الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد السلام القرطبي، تحقيق عبدالرزاق المهدي: دار الكتاب العربي، بيروت، 2004م.
15. التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي: دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
16. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي: دار الكتب العلمية، ط1، 2004م.
17. تفسير المنار، محمد رشيد رضا: دار المعرفة، بيروت، ط2.
18. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد الثعالبي: المكتبة المصرية، بيروت، 1997م.
19. الصحاح، أبو نصر الجوهري، تحقيق إميل يعقوب ومحمد الطريفي: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.

20. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى: دار إحياء التراث العربي.
21. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
22. صفوة البيان لمعاني القرآن، الشيخ حسن معلوف: الكويت، ط3، 1987م.
23. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق عبدالحميد هندلاوي: دار الكتب العلمية، بيروت.
24. في ظلال القرآن، سيد قطب: دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط12، 1986م.
25. كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق علي دحروج: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م.
26. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم الزمخشري: دار إحياء التراث، بيروت، ط2، 2001م.
27. لسان العرب، ابن منظور: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
28. مجاز القرآن، أبو عبيدة: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1962م.
29. المجتبى من السنن، أبو عبدالرحمن النسائي، تحقيق د. عبدالفتاح أبو غدة: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2، 1986م.
30. مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق قصي حسين: دار الهلال، بيروت، ط1، 1986م.
31. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبدالسلام محمد: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م.
32. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، شرح وتحقيق د. عبدالجليل شلبي: دار الكتب، القاهرة.
33. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقى: دار الفكر، بيروت، ط2، 1986م.
34. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون: دار الفكر، 1979م.
35. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي: دار القلم، دمشق، ط3، 2010م.
36. موسوعة مصطلحات جامع العلوم، عبدالنبي ذكري، تحقيق علي دحروج: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997م.
37. وجوه القرآن، عبد الرحمن النيسابوري، تحقيق جلال الأسبوطي: كتاب ناشرون، بيروت، 2011م.